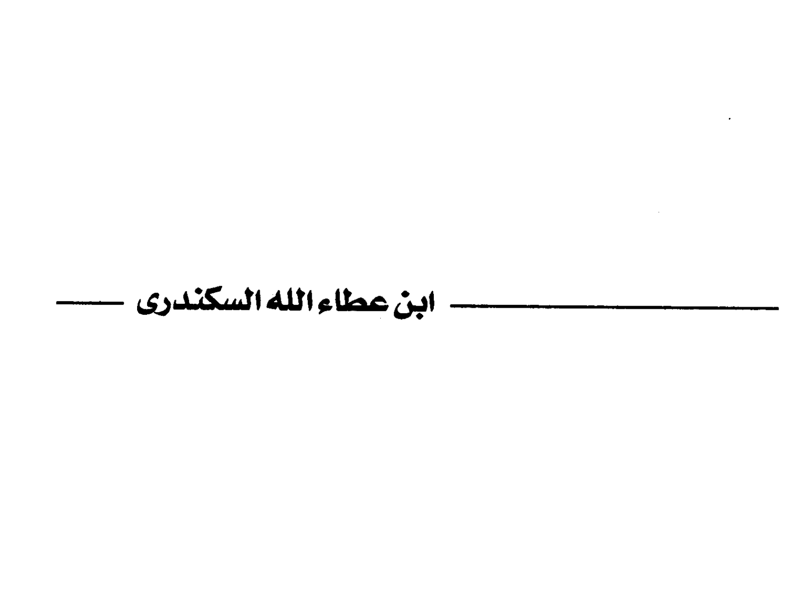
أحمد بهجت

شيخ المتصوفين
ابن عطاء الله السكندرى



بسم الله الرحمن الرحيم



كتاب المختار
أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩
ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١
تليفاكس ٤٩٠٩٥٤١
محمول ٥٨٥٢٧٦٢ / ٠١٠ - ١٥٢٨٢٧٠ /٠١٠

ماذا أكتب ؟..

فكرت طويلا ماذا أكتب لشهر رمضان هذا العـــام . وبقيت علي ترددي أياما، ثم تذكرت وأنا أقف أمام البحر في مدينة الإسكندرية، واحدا من العارفين بالله هـــو ابـــن عطاء الله السكندري .

وتذكرت أن في مكتبتي ثلاثة كتب عنـــه .. كتـــاب للدكتور أبو الوفا التفتازاني، وكتاب لابن عجيبة ، وكتاب الحكم العطائية شرح ابن عباد النفزي الرندي .

والكتاب الأخير من إعداد ودراسة الأستاذ محمد عبـــد المقصود هيكل وهو من إشراف ومراجعة الدكتور عبـــد الصبور شاهين.

يقول د. عبد الصبور شاهين : وقد وقع اختيارنا علي هذا الكتاب باعتباره قمة ما بلغته التجربة الـــصوفية مـــن اقتدار في التعبير الأدبي، فالحكم في رأيه شـــاهد علـــي أن صاحبها لم يكن مجرد صوفي يردد عبارات رمزية غامضة ،

تخفي وراءها شطحاته الفكرية ، بل كان أديبا واسع الأفق مستنير الفكر متنوع الاهتمام .

ممكن القول أيضاً أن التصوف في هذه الحكـــم يبـــدو منهجا في التوحيد الخالص، ولا ريب أن أئمة التـــصوف الأولين هم أئمة التوحيد الصادق والإيمان العميق .

وأقصد بأئمة التصوف هنا والكلام للـــدكتور عبـــد الصبور شاهين أهل التقوي من المتصوفة الـــسلوكيين ولا أزكي علي الله أحدا لا أهل الزيـــغ أصـــحاب الأفكـــار الشاطحة والمواقف الغالية فهولاء لا يسلم لهم قـــول ولا عمل، لأن أفكارهم ألغاز تنتهي دائما إلي الحلول وتهـــوي بغباء إلي قاع الشرك والتجسيد، نتيجة اعتنـــاقهم بعـــض الأراء الفلسفية الإغريقية .

ويري د. شاهين أن التصوف الذي تألق علي عهـــود أقطابه وأئمتة قد انحدر علي أيدي الأتباع والمريدين، حين انصرف هؤلاء عن الله وتوجهوا نحو أشخاص شـــيوخهم وحياة أئمتهم، فأصبح شغلهم الشاغل أن يمجدوا الأقطاب

ويسردوا أمجادهم وكراماتهم، وربما نسبوا إليهم ما يرفضه العقل ويأباه الشرع .

إن التصوف الإسلامي في حاجة إلي تنقية وتـــصفية، وذلك لا يتم إلا بالرجوع إلي القرآن الكريم والسنة .

من هو ؟..

من هو ابن عطاء الله السكندرى ؟..

انفرد ابن عجيبة بذكر اسمه ونسبه بشيء من التفصيل، قال هو الشيخ الإمام تاج الدين، وترجمان العارفين أبو الفضل، وراح يعدد أسماء أجداده حتي وصل إلي أحمد بن عيسي بن الحسين بن عطاء الله، العربي نسبا، المالكي مذهبا، الاسكندرى دارا، القاهرى مزارا، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، لا أحد يعرف العام الذي ولد فيه، وإن عرف الناس العام الذي توفي فيه (سنه٧٠٩ هجرية) أي منذ ما يقرب من٧٠٠ عام .

وقد تميزت حياته بثلاث مراحل من حيث المكان .

مرحلتان منها بمدينة الإسكندرية، ومرحله أخيرة بالقاهرة، حيث عاش فيها ما بقي من عمره، ثم مات ودفن بها .

في المرحلة الأولي من عمره عاش في مدينة الإسكندرية، وقد نشأ فيها ابن عطاء الله طالبا لعلوم عصره الدينية مـــن تفسير، وحديث، وفقه ، ونحو، وبيان وغيرها من علـــوم الشريعة .

أما المرحلة الثانية فقد وقعت فيها نقطة تحول في حياته، حين التقي بأبي العباس المرسى .

في البداية حكمته عقدة الفقهاء الذين يأخذون علـــي الصوفية عشرات المآخذ، ولا يستريحون لهم ولا يطمئنون لكلامهم .

وابتعد عن أبي العباس المرسى .. ثم راجع نفسه فوجد نفسه قد تسرع في الحكم علي الصوفي الكـــبير فعـــاد إلي صحبته.

وفي هذه المرحلة كان يدرس كتب الفقـــه لتلاميـــذه ومريديه، وطوال هذا الوقت كـــان يعـــيش في مدينـــة الإسكندرية، وكانت مدينة الإسكندرية في عصره مركزا

مهما من المراكز العلمية في القطر المصري، وكان بها كثير من خيرة العلماء إلي جوار كونها زاخرة بجملة من شيوخ الصوفية الصالحين .

ثم جاءت المرحلة الثالثة في حياته، وهي مرحلة الهجرة من الإسكندرية إلي القاهرة التي اشتغل فيها بأنبل مهنـــة ، هي مهنة التدريس .

عصره وحياته

تقع حياة ابن عطاء الله السكندرى في النصف الأخــير من القرن السابع الهجري وفي العقد الأول من القرن الثامن الهجري.

ويتساءل معد الكتاب ودارسه الأستاذ محمــد عبــد المقصود هيكل عن خصائص هذه الحقبة في مصر من ناحية المذاهب الدينية .

يحدثنا التاريخ أن مذهب الشيعة كان قد اختفــي في مصر منذ أواخر القرن السادس الهجري حيث قضي عليه السلطان صلاح الدين الأيوبي وسادت بمصر منــذ ذلــك الوقت مذاهب أهل السنة .

وحين نشأ ابن عطاء الله وجد المذهب المالكي الــذي ينتمي إليه قد أصبح علي قدم المساواة مع جميع مــذاهب أهل السنة الأخري، كما وجد السيادة لعقيدة أبي الحسن الأشعري .

وكان للمذاهب الدينية السائدة في هذا العصر أثر كبير في اتجاه ابن عطاء الله السكندرى، فقد كان مالكي المذهب ويؤمن بعقيدة أبي الحسن الأشعري الكلامية، وكان بمدينة الإسكندرية على عصره مدرسة فقهية مالكية معروفة أسسها الشيخ أبو الحسن الإبياري وهو من أكبر علماء المالكية في عصره ، وكان ابن عطاء الله من حيث هو فقيه مالكي ينتسب لهذه المدرسة، ثم كان في طور اكتماله امتدادا لهذه المدرسة السكندرية ، وكان يقوم في الأزهر بتدريس العلوم الظاهرة من فقه وحديث وغيرها إلى جوار تدريسه للتصوف وكلامه في فن تصفية القلوب لله .

كيف كانت الحياة في عصره من الناحية السياسية والاجتماعية ؟.. تقع حياه ابن عطاء الله إبان حكم دولة المماليك البحرية التي كان أول ملوكها المعز أيبك التركماني، ولم تكن الحياة السياسية مستقرة بسبب غزو التتار وتهديد البلاد تهديدا مستمرا، ولم يكن في الداخل استقرار بسبب الصراعات بين المماليك والسلاطين، وكان

الشعب المصري مسحوقا ولا صوت له في إدارة شـــئونه، وإلي جوار طبقة المماليك العـــسكرية وطبقـــة الـــشعب المسحوق كان العلماء يـــشكلون طبقـــة مـــن الفقهـــاء والصوفية، وكانت هذه الطبقة تحظي باحترام الـــسلاطين وربما كانت هي الحائل الوحيد بين اســـتبداد الـــسلاطين والشعب .

مع السلاطين

كان ابن عطاء الله لا يخشي بأس السلاطين، وكان يري أن من أهم واجبات الصوفي أمر الملوك بالمعروف ونهيهم عن المنكر إذا كانوا علي غير الجادة القويمة، من مهامهم أيضا الرحمة بجميع العباد، والشفقة بالفقراء والانتصار لهم، وتقديمهم علي الأغنياء وأبناء الدنيا من الملوك والأمراء .

ولابن عطاء الله في هذا موقف مشهود .

يقول عن نفسه في لطائف المنن :

ـ اجتمعت بالسلطان الملك المنصور لاجين رحمه الله قلت له: يجب عليكم الشكر لله، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء، وانشرحت قلوب الرعايا بكم، والرخاء أمر لا يستطيع الملوك اكتسابه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال السلطان : وما هو الشكر ؟..

قلت : الشكر علي ثلاثة أقسام، شكر اللسان، وشكر

الأركان وشكر الجنان، أما شكر اللسان فهو التحدث بالنعمة، قال تعالي وأما بنعمة ربك فحدث، وشكر الأركان العمل بطاعة الله، قال تعالي ﴿اعملوا آل داود شكرا﴾، وشكر الجنان هو الاعتراف بأن كل نعمة بك، أو بأحد من العباد هي من الله، قال تعالي :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ .

قال السلطان : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟.. قلت له : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد .

وإذا كان ذا غني فبالبذل والإيثار للعباد وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم، ودفع الأضرار والانكاد.

هذا موقف وقفه ابن عطاء الله السكندرى من أحد سلاطين عصره، وهو ينطوي علي ذكاء، لقد خاطب السلطان بأرق العبارات، وقال كل ما يريد قوله رغم ذلك.

تحولات

ولد ابن عطاء الله السكندرى في بيت علم، كان جده أستاذاً للفقه، وكان البيت بحكم ثقافته الفقهيـــة المقيـــدة بظاهر النصوص الشرعية لا يستسيغ التصوف من حيـــث هو علم بأحكام الباطن .

كان جده أحد فقهاء عصره، وكان من المنكرين علي الصوفية أشد الإنكار .

وتاثر السكندرى بهذا المناخ الغالب علي البيت، ومن ثم فقد أنكر علي أشهر صوفية الإسكندرية في عصره، وكان هذا هو أبي العباسي المرسى .

هذه الخصومة التي حملها ابن عطاء الله كانت سببا في قلقه الداخلي، وخشيته أن يكون منكرا علي أبي العباسي المرسى دون وجه حق ، واندفع ابن عطاء الله السكندرى إلي مجلس أبا العباسي المرسى، ولازمه واستمع إلي دروسه. بعد مجموعة من اللقاءات وقع حب الشيخ في قلبه، وتحول الموقف وأصبح ابن عطاء الله السكندرى علي يدي شيخه المرسى صوفيا كاملا، عارفا بالله تعالي وواصـــلا إليـــه،

وكرس حياته للدعوة إلي الله وتهذيب المريدين علي طريقة الشاذلية .

وتتلخص طريقة الشاذلية التي ينتمي إليها ابن عطاء الله في أصول خمسة :

(١) تقوي الله في السر والعلانية .
(٢) اتباع السنة في الأقوال والأفعال.
(٣) الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.
(٤) الرضا عن الله في القليل والكثير.
(٥) الرجوع إلي الله في السراء والضراء.

وأبرز تعاليمها كذلك مبدأ القول بإسقاط التدبير والاختيار، وهو الأصل الذي بُني عليه الطريق كله، وهو المبدأ الذي عمقه ابن عطاء الله وجعله مذهبا كاملا في التصوف. إن الصوفي لا يدبر لنفسه، إنه يسقط التدبير، ولا يختار لنفسه إنما يترك نفسه بين يدي الرحمة الإلهية وسوف تختار له الأفضل .

الطريقة الشاذلية

لم يترك الشاذلي مصنفات في التصوف، ولا تلميذه أبو العباس المرسى، وكل ما خلفاه جمله أقوال في التـــصوف، وبعض الأدعية والأحزاب، وكان ابن عطاء الله هـــو أول من جمع أقوالهما، ووصاياهما وأدعيتهما، وتـــرجم لهمـــا، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية الروحـــي، ولـــولاه لضاع هذا التراث .

ثم كان إلي جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة في بيان آداب الطريقة الشاذلية النظرية والعملية .

ومن هنا جاءت أهميته البالغة في الطريقة والتعريف بها، وبقواعدها لكل من جاء بعده .

وإذا كان لابن عطاء الله الـــسكندرى هـــذه الأهميـــة الكبري في حفظ تراث الطريقة من النـــاحيتين النظريـــة والعملية، فإن له أهمية أخري من ناحية نشر الطريقة بمصر، وبغيرها من الأقطار الإسلامية .

ويمكن القول أن جميع طرق الشاذلية ترجع بالسند إلي شيخنا ابن عطاء الله السكندرى .

ويعد صوفينا السكندرى إلي جانب كونه دعامة رئيسية في بناء المدرسة الشاذلية أبرز مثال للتصوف المـــصري في النصف الأخير من القرن السابع الهجري .. وما يـــصدق علي صوفية المصريين وتصوفهم يصدق علي ابن عطاء الله.

أنه لا يقول بوحدة الوجود .. ولا يقول بالحلول .

ولا يقول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق .

وهو متقيد إلي أبعد حد بمذهب أهل السنة، وهـــو في هذا خاضع لمقتضي التصوف المـــصري أولا، والتـــصوف الشاذلي المغربي ثانيا.. وكلاهما قائم علي الكتاب والـــسنه وتصوفه تصوف إسلامي خالص من الآراء والمعتقـــدات الأجنبية ، فهو قد نشا في بيئة إسلامية خالصة ، وكـــان خاضعا للكتاب والسنة .

بعد حياة خلصت لدعوة الخلق إلي طريق الحق وتربيـــة السالكين، توفي ابن عطاء الله الـــسكندرى في عـــام٧٠٩ هـــ، وكانت وفاته بالمدرسة المنصورية بالقاهرة، ويـــري الدكتور أبو الوفا التفتازاني أن ابن عطاء الله تولي التدريس في هذه المدرسة، وأن منيته وافته بها ودفن بجبانة ســـيدي علي أبو الوفا الكائنة تحت جبل المقطم، ولابن عطـــاء الله مسجد ينسب إليه بالإسكندرية ، ذكره علي مبـــارك في خططه وقال إنه مشهور بالإسكندرية واعتبره من المساجد الجامعة فيها .

كان أهم ما تركه ابن عطاء الله بعده الحكم العطائية، وهي الحكم التي شرحها أكثر من صوفي بعد ذلك .. كان من بينهم ابن عباد النفزي الرندي .. فمن هو ابن عباد ؟ إن تاريخ التصوف الإسلامي في الأندلس حافل بكثير من الشخصيات المهمة، من هذه الشخصيات ابن عباد النفزي

الرندي (نسبة إلي بلدة رندة) وهو صوفي أندلسي كـــان ممثلا للمدرسة الشاذلية الصوفية في إسبانيا في القرن الثامن الهجري، ولد ابن عباد في مدينة رندة، وهي تقع جنـــوب الاندلس بين اشبيليه وملقا في بيت علم، وتولي أبوه وخاله أمر تنشئته بعد ذلك وقد درس الرندي العلوم الإســـلامية وتميز فيها، كما أنه رحل إلي المغرب لياخذ عن علمائـــه، وأقام بتلمسان وفارس لياخذ عن علمائهما بعد دراســـة الرندي للعلوم الدينية نراه يتجه فجأة إلي ســـلوك طريـــق التصوف .

ما هي الدوافع التي دفعته لسلوك هذا الطريق ؟..

إن المترجمين له لم يتعرضوا لبيان هذه الدوافع، وكل ما لدينا عبارة للرندي قالها عن نفسه عندما توجه بـــصحبة الشيخ الصوفي ابن عاشر وأصحابه قال: قصدتهم لوجدان السلامة معهم ... كان الشيخ يتحدث عن السلام الروحي

حضور مع الله

تُنسب الطريقة الشاذلية التي ينتسب إليها ابن عباد الرندي إلي الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي ينتهي نسبه إلي الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

وكان الشاذلي صوفيا عارفا بالعلوم الدينية على اختلافها، ومربيا مشهودا له بعلو مترلته في التصوف، وكان له أتباع ومريدون كثيرون بالمغرب .

وقد هاجر الشيخ أبو الحسن الشاذلي إلي مصر نحو سنه ٦٤٢ هجرية وصحبه فريق من أتباعه منهم الشيخ أبو العباس المرسى، وقد استقر بها هو وأصحابه .

ولما توفي الشاذلي تولي أمر الدعوة من بعده تلميذه أبو العباس المرسى الذي صحبه من المصريين تلاميذ كثيرون أبرزهم ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم .

وقد اشتهر الرندي بالعلم والخلق وفضيلة التواضع، وهي فضيلة أساسية في التصوف .

وكان الرندي كذلك متحققا مع الله كسائر الشاذلية، بإسقاط الإرادة والتدبير، بمعني ألا يتطلع المرء في قلق إلي معرفة المجهول، وما ستئول إليه الأمور في المستقبل، لأن المستقبل بيد الله، مع الرضا التام بما يورده الله عليه في الحال، والقيام بحق الوقت .. وكان الرندي كذلك معرضا عن الخلق بمعني عدم الركون إليهم، والتشاغل بما يتشاغلون به من توافه الأمور، وعدم الذل إليهم والطمع فيهم .

ومن صفاته البارزة أنه كان دائم الحضور مع الله، ولا يحب أن يحضر في مكان ينسي فيه الحق، وكان يتصف بالرحمة والشفقة لجميع العباد ولا غرابة في ذلك فهذه من صفات الدعاة إلي طريق الله .. وجدير بالذكر أن الرندي لم يكن في حياته صوفيا متجردا منقطعا للعباده، إنماكان يتولي وظيفة دينية كبيرة في فاس .. وهي إمامة وخطابة مسجد القرويين لمدة ١٥ سنه حتي توفي بفاس .

٢٦٤ حكمة

يبدو أن الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندرى من مؤلفات الشباب .

أما عددها فهو ٢٦٤ قطعة ..

وتعد الحكم العطائية من عيون النثـــر الأدبي الـــصوفي العربي، وهي عبارة عن فقرات قصيرة ذات ألفاظ قليلـــة تتضمن معاني عميقة .

وأغلب الحكم العطائية ترد في صورة خطاب إلي المريد السالك لطريق الصوفية، تنبيها إلي قواعد الـــسلوك الـــتي ينبغي مراعاتها .

يقول ابن عبد الجبار النفري :

إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة .

وهذا ينطبق علي حكم ابن عطاء الله السكندرى كما ينطبق علي النفري ويبقي سؤال :

هل هناك ترابط منطّقي بين الحكم ؟..

يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني من خلال كتابه عن ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه، إن الحكم ليست مرتبطة ارتباطا منطقيا، كما لم يراع صاحبها ترتيبها بحسب موضوعاقما، إنما هي عبارات معبرة عن خطرات نفسه التي عرضت له في أذواقه فدونها بغير تعمل تصنيف أو تكلف تاليف .

ويتساءل الأستاذ محمد عبد المقصود هيكل وهو معد الكتاب ودارسه هل حقا ليس بين هذه الحكم المتعددة ارتباط منطقي، أو ترتيب بين موضوعاقما كما يري د.التفتازاني ؟!

اختلفت آراء الدارسين للحكم وشراحها في ذلك .

منهم من يري وجود هذا الارتباط المنطقي، والترتيب بين موضوعاقما، من هؤلاء ابن عجيبة والشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله تعالي، والشيخ زروق في شرحه الذي حققه الشيخ عبد الحليم محمود .

أما ابن عباد النفزي في شـــرحه للحكـــم والـــشيخ الشرقاوي فنجد أنهما يشيران أحيانا قليلة وفي بعض الحكم إلي وجود هذه الروابط، ويمكن القول أن الحكم ينتظمها عنوان واحد هو العلاقة بين الإنسان والله .

دستور السالكين

أودع ابن عطاء الله السكندرى في حكمه خلاصة أفكاره في التصوف، فهي تستوعب مذهبه الصوفي كله، وجميع ما جاء في مصنفاته الأخري ليس إلا شرحا وتفصيلا لما احتوته .

ومن الحكم العطائية ما يتناول الأحكام الشرعية وآثارها في قلوب المتعبدين السالكين، ومنها ما يعرض للمجاهدة النفسية وما يتعلق بها وما يترتب عليها من مقامات وأحوال هي ثمرتها .. ومنها ما يدور حول المعرفة، ماهيتها وأدواتها ومناهجها، وآداب المتحققين بها .

ومنها ما يتضمن آراء ميتافيزيقية في تفسير الوجود وصلته بالله وصلة الإنسان بالله .

ومنها ما يشير إلي آداب السلوك التي ينبغي أن يراعيها السالك في مجاهداته .. وبعبارة أخري في طريقه من أوله إلي آخره كما يقول د. التفتازاني .

وللحكم العطائية قيمة تصوفية كبري، فهي تلخص مذهب ابن عطاء الله الصوفي من ناحية، وهي دستور للسالكين لطريقة الشاذلي من جهة أخري .

وقد اشتهر ابن عطاء الله السكندرى بين أبناء طريقته فلقبوه صاحب الحكم وبسبب قرب الحكم من الكتاب والسنة، عرفت الحكم طريقها إلي الفقهاء من علماء الأزهر، وهكذا قام بشرحها وتدريسها طائفة من علماء الأزهر المصريين القدامي مثل الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الإسلام، والشيخ عبد المجيد الشرنوبي من علماء الأزهر، والشيخ محمد بخيت (مفتي الديار المصرية سابقا) وكان يدرسها للجمهور بعد صلاة العصر في مسجد الحسين في أيام شهر رمضان المكرم .

ويذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق أنه حضر للشيخ بخيت طائفة من دروسه عن الحكم وأنه أنس بمعانيها أشد الأنس.

الحكمة الأولى

عدد الحكم العطائية ٢٦٤ حكمة .. سنختار من بينها ما يسمح به المجال .

الحكمة الأولي .. قال ابن عطاء الله :

من علامات الاعتماد علي العمل ـــ نقصان الرجـــاء عند وجود الزلل ..

قال ابن عباد ـــ الاعتماد علي الله تعالي نعت العارفين الموحدين، والاعتماد علي غيره وصف الجاهلين الغافلين، كائنا ما كان ذلك الغير، أما العارفون الموحدون فإنهم علي بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلي ربهم، فـــانون عـــن أنفسهم، فإذا وقعوا في زلة، أو أصابتهم غفلـــة، شـــهدوا تصريف الحق تعالي لهم .. وجريان قضائه عليهم .

كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة، أو لاح عليهم لائح من يقظة، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم، و لم يـــروا فيهـــا حولهم ولا قوتهم، لأن السابق إلي قلوبهم ذكـــر ربهـــم .

إن أنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين، إنهم غرقي في بحار التوحيد، قد استوي خوفهم ورجاؤهم .. لا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان.

ما الذي يريده ابن عطاء الله السكندرى من هذه الحكمة ؟..

إنه يريد عدم التعويل علي الأعمال والاعتماد علي فضل الله، حتي لا يقنط مخطيء من رحمة ربه، بل يطمع دائما في رحمته ويجعل نصب عينيه قوله تعالي :

﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ .

الحكمة الثانية

قال ابن عطاء الله السكندرى :

إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب، من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية .

قال ابن عباد الأسباب هنا عبارة عما يتوصل به إلي غرض ينال في الدنيا، والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب.

ويقول ابن عجيبة في إيقاظ الهمم في شرح الحكم، التجريد في اللغة هو الإزالة وعند الصوفية ثلاثة أقسام. تجريد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو بهما معا، وتجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله، وتجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله، وتجريدهما معا هو إفراد القلب والقالب لله .

يقول ابن عباد من إقامة الحق تعالي في الأسباب وأراد هو الخروج منها فذلك من شهوته الخفيـــة، وهـــي مـــن الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالي وإرادته هو خلاف ذلك .

إن الشيطان يريد منع العباد من الرضا عن الله تعـــالي فيما هم فيه ويريد أن يخرجهم عـــن مختـــار الله لهـــم إلي اختيارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولي إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه ﴿وقل رب أدخلـــني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾ .

فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك، والمخـــرج الصدق أيضا كذلك، والذي يريده الحق منك أن تمكـــث حيث أقامك، حتي يكون الحق سبحانه هو الـــذي تـــولي إخراجك كما تولي إدخالك، وليس المطلـــوب أن تتـــرك السبب بل المطلوب أن يتركك السبب .

سوابق الهمم

الحكمة الثالثة :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار ..

قال ابن عباد :

الهمم السوابق هي قوي النفس (رغبات النفس) التي تنفعل عنها بعض الموجودات بإذن الله تعالي، ويسميها الصوفية همه فيقولون : أحال فلان همته علي أمر ما، فانفعل له ذلك .

هذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر، وهو معني قولنا بإذن الله تعالي .

هذه الهمم رغم سبقها ونفوذها لا تخرق أسوار الأقدار، ولا تنفذ منها .

هذه الهمم قد تكون للأولياء كرامات، وقــد تكــون لغيرهم استدراجا ومكرا ..

والواجب علي الصوفي أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية .. وأن الفاعل هو الله تعالي وحده .

وقد أورد المؤلف هذه المسألة بين كلامه في التــدبير، ليعرّف القاريء والسامع أن وجود التدبير لا جدوي لــه، ولا فائدة ..

لأن الهمة الفعالة إذا لم تفد في خرق أســوار الأقــدار شيئا.

كيف يفيد في ذلك التدبير .

وما لا فائدة فيه فيه فضول لا ينبغي أن يتــشاغل بــه ويتعب فيه ذوو العقول .

ومعني الحكمة :

إن الهمم مع سبقها وسرعه تاثيرها وإمكانات نفوذهـــا لا تخرق أقداره تعالي، وهي أقدار مصونة ومحفوظة كأنهـــا مدينة ذات أسوار فولاذية لا تخرق، الهمم إذن أســـباب لا تأثير لها والفاعل هو الله تعالي وحده .

لا اختيار

الحكمة السادسة ..

يقول ابن عطاء الله :

لا يكون تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك، فهو قد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الـــذي تريد .

يقول ابن عباد :

حكم العبد ألا يتخير شيئا علـــي مـــولاه، ولا يجـــزم بصلاحية حال من الأحوال له، لأنه جاهل من كل وجه، قد يكره الشيء وهو خير له، ويحب الشيء وهو شر له .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لا تختـــر من أمرك شيئا، واختر ألا تختار، وفر من ذلك المختار، وفر من فرارك ومن كل شيء إلي الله عز وجل .

وربك يخلق ما يشاء ويختار ..

دخل رجل علي سيدي أبي العباس المرســـي وكـــان

مريضا يتألم فقال له الرجل عافاك الله يا سيدي .

سكت الشيخ و لم يجاوبه، بعد ساعة عاد الرجل يقول لأبي العباس الله يعافيك يا سيدي .

قال الشيخ أبو العباس وأنا ما سألت الله العافية، والذي أنا فيه هو العافية .

هذا رسول الله صلي الله عليه وسلم قد سأل الله العافيــة وقد قال مازالت أكلة خيبر تعاودني والآن قطعت أبهـــري وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مسموما .. لم يرد هذا الخبر في مرجع معتمد، ويبدو أنها شبهة نابعة من أكلة اليهودية التي قدمت ذراع الـــشاه إلي الرسول .

وسيدنا عمر رضي الله عنه سال الله العافية وبعـــد ذلـــك مات مطعونا، وسيدنا عثمان رضي الله عنـــه ســـأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحا، وسيدنا علي رضـــي الله عنه سال الله العافية وبعد ذلك مات مقتـــولا شـــهيدا .. وكلهم شهداء .

فى الدعاء

يري ابن عباد أن علي العبد أن يسلم نفسه لمولاه، عارفا أن الخيرة له في جميع ما قضي به الحق، وإن خالف ذلك مراده وهواه، فإذا دعا العبد وطلب من مولاه شيئا أيقن بالإجابة لا محالة .

قال الله عز وجل "وقال ربكم ادعوني استجب لكم".

وقال سبحانه وتعالي "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان" ..

عن جابر رضي الله عنة قال : سمعت رسول الله صلي الله علي وسلم يقول ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاة الله ما سأل، أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال :

ما من داع يدعو إلا استجاب الله لدعوته، أو صـــرف عنه مثلها سوءا، أو حط من ذنوبه بقدرها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم .

وإذن فإن الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصادق، إلا أن الإجابة أمرها إلي الله تعـــالي، يجعلها متي شاء، وقد يكون المنع وتأخر العطـــاء إجابـــة وعطاء لمن فهم عن الله تعالي ذلك .

لا يجب علي العبد أن ييأس من الله تعالي إذا رأي منعا أو تأخيراً، وإن ألح في دعائه وسؤاله .

وقد يكون تأخير الإجابة إلي الآخرة خيرا له وأفضل .
ورد في بعض الأخبار يبعث عبد فيقول الله تعالي له :

ألم آمرك برفع حوائجك إلي، فيقول نعم وقد رفعتـــها إليك .. فيقول الله تعالي ما سألت شيئا إلا أجبتك فيـــه،

ولكني أنجزت لك البعض في الدنيا، وما لم أنجزه لــــك في الدنيا فهو مُدخر لك فخذه الآن، عندئذ يقول العبد حين يري ما ادخر له ليته لم يقض لي حاجه في الدنيا .

وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستعجال في إجابة الدعاء فقال : يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي .

فى الدعاء والإجابة

دعا موسي وهارون عليهما الصلاة والسلام علي فرعون فيما أخبر الله به عنهما حيث قالا :

﴿ربنا اطمس علي أموالهم واشدد علي قلوبهم فلا يؤمنوا حتي يروا العذاب الأليم﴾ .

ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالي :

﴿قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾

قالوا إنه كان بين قول الله تعالي قد أجيبت دعوتكما وهلاك فرعون أربعون سنة .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالي فاستقيما أي علي عدم استعجال ما طلبتما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون وهؤلاء هم الذين يستعجلون الإجابة .

ويكفي المرء ما يحصل له من شرف وحظ بسبب

مداومة الدعاء، فقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال :

إن الله يحب الملحين في الدعاء .

وقد جاء في الحديث قال جبريل عليه السلام : يا رب عبدك فلان، اقض له حاجته فيقول دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته .. رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلي الله عليه وسلم .

وهذا يعني أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته، وقد روي هذا المعني أيضا منصوصا، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه . قال المهدوي كل من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره، وراضيا باختيار الحق فهو مُستدرج، وهو ممن قيل اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته، فإذا كان في دعائه مع اختيار الحق تعالي لا مع اختيار نفسه كان مُجابا وإن لم يعط، قال تعالي أمن يجيب المضطر إذا دعاه فرتب الإجابة علي الاضطرار، قال بعض العارفين بالله: إن الاضطرار نعمة من الله رغم ردائها الخشن، والمضطر هو الذي يرفع إلي الله يديه ولا يري لنفسه عملا أو فضلا .

الإخلاص

الحكمة العاشرة :

يقول ابن عطاء الله السكندرى :

الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها قال ابن عباد : إخلاص كل عبد في أعماله علي حسب رتبته ومقامه، فأما من كان بينهم من الأبرار فمنتهي درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلي والخفي.

ومنتهي أمره إخراج الخلق عن نظره في أعمال البر التي يقوم بها، مع بقاء رؤيته لنفسه والاعتماد عليها. أما إن كان من المقربين فقد جاوز هذا المقام إلي مقام جديد، هو عدم رؤيته لنفسه في عمله .

إن إخلاصه في شهود انفراد الحق تعالي بتحريكه وتسكينه، من غير أن يري لنفسه في ذلك حولا ولا قوة .. قال بعض المشايخ العارفين بالله :

صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة .

وهذه خلاصة معني الحكمة كما يقول ابن عجيبـــة في إيقاظ الهمم الأعمال كلها أشباح وأجـــساد، وأرواحهـــا وجود الإخلاص فيها .. وإلا كانت صورا قائمة، وأشباحا خاوية لا عبرة بها. يقول تعالي : ﴿وما أمروا إلا ليعبـــدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ ، وقال سبحانه : ﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾ والإخلاص علي٣ درجات، درجة العوام ودرجة الخواص، ودرجة خواص الخواص، أما إخـــلاص العوام فيدخل فيه طلب الحظوظ الدنيوية والأخرويه، أمـــا إخلاص الخواص فيدخل فيه طلب الحظوظ الأخروية، أما إخلاص خواص الخواص فهو إخراج الحظـــوظ بالكليـــة والسعي نحو هدف واحد هو رؤية الحق ورضا الحق عنهم .. يقول ابن الفارض :

ليس سؤلي من الجنان نعيما غير أني أحبها لأراكا ..

أرض الخمول

الحكمة الحادية عشرة :

قال ابن عطاء الله :

ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن .

قال ابن عباد: لا شيء أضر على المريد من الشهرة، وانتشار الصيت، لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها، وربما سمحت نفس المريد بترك ما سوي هذا من الحظوظ، وهذه ليست مهمة كمحبة الجاه وإيثار الاشتهار.. وهما إحساسان مناقضان للعبودية التي هو مطالب بها .

قال ابراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال رجل لبشر بن الحارث : أوصني ..

قال بشر : أخمل ذكرك وأطب مطعمك، وقال بشر أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس (أي من أراد أن يشتهر بين الناس) ..

والمراد بالخمول هو سقوط المترلة عند الناس، وعدم الشهرة بينهم، يقال خمل الرجل بمعني خفي، فلم يعرف و لم يذكر .

لماذا يصر الصوفية علي التركيز علي فكرة الاختفاء وعدم الشهرة بين الناس ؟..

إنهم يرون الاختفاء والتواضع مما يعين علي الإخلاص، بخلاف حب الظهور، فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور، فإذا سلكت الطريق بعد شهرتك، فالواجب عليك التواضع، فلا شيء أضر علي المريد من الشهرة، وانتشار الصيت ومحبة الجاه، وإيثار الاشتهار مناقض للعبودية التي يطالب بها المريد .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه :

من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الشهرة فهو عبد للشهرة، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه، والخفاء أفضل لأنه أدعي إلي التواضع .

الحكمة السادسة عشرة :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر في كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر لكل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء،وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟..
كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود كل شيء؟

يا عجبا ..

كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم ؟..

تضمنت هذه الحكمة عدداً من الأدلة استدل بها ابن عطاء الله علي أن الله سبحانه وتعالي لا يحتجب بالأكوان، وأتي بهذه الحكمة علي سبيل التعجب، واستبعاد أن يتصور ذلك في الأذهان، فقد استدل علي بطلان الحجاب في حقه تعالي بعشرة أدلة، متعجبا من كل واحد منها، لظهـــوره مـــع خفائه، أي لشدة ظهوره عند العارفين، ولشدة خفائه عند الغافلين، حتي قال ابن عباد هذا الفصل من قولها لكـــون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأي الكون و لم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعـــوزه وجـــود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار .. هذه الحكمة الرابعة عشرة مع الحكمة السادسة عشرة يعتبرهـــا ابن عباد أبدع ما قاله ابن عطاء الله السكندرى، ولو أنه لم يقل غير هذا لكان هذا كافيا للثناء عليه .

الحكمة الرابعة والعشرون :

قال ابن عطاء الله :

لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت في هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها . قال ابن عباد في شرحه لهذه الحكمة: جعل الله تعالي الدنيا دار فتنة وابتلاء، ليعمل كل واحد فيها علي مقتضي ما سبق، ويوفي جزاءه في الدار الآخرة. قال الله تعالي : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾.. ومن ضرورات الحياة الدنيا وجود المكاره والمشاق فيها، لأن الله تعالي جعلها محلا للأغيار، وموطنا لوقوع الأكدار تزهيدا فيها وفي التكالب عليها ..

وقد أشار لهذا المعني الإمام جعفر الصادق فيما نُقل عنه، وكذلك ابن مسعود رضي الله عنهما .. لهذا سُميت الدنيا ووصفت بالدناءة والدنو، فعمرها قصير، ومتاعها

قليل، وآفاقها غزيرة، ومن وطن نفسه علي ذلـــك وجـــد الراحة، وكان دهره كله عافية، ومن نظر إلي غير ذلـــك، وتكالب علي الدنيا، فقد أتعب نفسه ونغص حياته وكلف الأيام ضد طباعها .

يقول الشاعر أبو الحسن التهامي عن الدنيا :

طبعت علي كدر وأنت تريدها

صفوا من الأقدار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها

متطلب في المـــاء جذوة نار

قال ابن مسعود رضي الله عنه : الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح، وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه لست أستبشع ما يرد علي من العالم، لأني قد أصلت أصلا، وهو أن الدنيا دار هم وغم وبلاء وفتنه، ومن طبيعتها أن تلقاني بما أكره ..

المستدلون به

الحكمة التاسعة والعشرون :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

شتان بين من يستدل به، أو يستدل عليه، المستدل بـــه عرف الحق لأهله، فأثبت الأمـــر مـــن وجـــود أصـــله، والاستدلال عليه نابع من عدم الوصول إليه، وإلا فمـــتي غاب حتي يستدل عليه، ومتي ابتعد حتي تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟..

قال ابن عباد :

بنو آدم في أول نشأتهم، ومبدأ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم .

قال الله تعالي : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾ .. ثم إن الله اختص بعـــضهم بخـــصوصية عنايته واختارهم من أهل ولايته، وما ذلك إلا لحـــصول

العلم الذي تضمنه قوله تعالي :

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ .

وقد قسم الله سبحانه وتعالي المؤمنين إلي قسمين، قسم اختصهم بمحبتة، وجعلهم من أهل ولايته، ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب، وقسم أقامهم لخدمة البشر، وجعلهم من أهل حكمته، فوقفوا مع ظواهر القشور و لم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور . أما أهل المحبة فهم يستولون بالنور علي وجود الستور، وبالحق علي وجود الخلق، وأما أهل خدمته فهم يستدلون بظهور الستور علي وجود النور، وبالخلق علي وجود الحق، أما من يستدل عليه .. فلبعده عنه في حال قربه منه، وإلا فمتي غاب حتي يستدل عليه .. إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد، ومتي بعد حتي تكون الآثار الوهمية هي التي توصل إليه بينما يقول الحق :

(وهو معكم أينما كنتم ...)

أوصاف البشرية

الحكمة الرابعة والثلاثون :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف منـــاقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيبا، ومن حضرته قريبا .

يقول ابن عباد :

أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان أحدهما مــا يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهي الأعمال، والثاني مــا يتعلق بباطنه وقلبه، وقد نبه الرسول صلي الله عليه وســلم إلي أهمية القلب فقال : إن في الجسد مضغة إذا صــلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلــه .. ألا وهي القلب .

وصلاح القلب إنما يكون بطهارتــه عــن الــصفات المذمومة كلها، وهذه هي الصفات المناقضة للعبودية مــن أوصاف البشرية التي أشار إليها ابن عطاء الله، وهي كثيرة

مثل الكبرياء والرياء والسمعة، والحقد والحسد وحب الجاه والمال، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء والتذلل للأغنياء واحتقار الفقراء وتـرك الثقـة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المترلة من قلوب الخلـق، والشح والبخل وطول الأمل، والغل والغـش والقـسوة والفظاظة والغلظة، وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء، وحب الرياسة وطلب العلو إلي غير ذلك مـن الـصفات الذميمة .

ومن المعروف أن هذه الصفات الذميمة لها نبع تنبـع منه، وهذه هي رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها .

إذا عالج المريد نفسه علي الوجه الذي رسموه له والتزم الوظائف التي أمروه بها طهر قلبه وزكت نفسه واتـصف بمحاسن الصفات التي تزينه بين العباد وأمام رب العبـاد . وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية بالتحلي والتخلي: والمقصود بالتخلي هنا التخلي عـن الـصفات المذمومة ونبذها، أما التحلي فيكون بالصفات المحمـودة واكتسالها عن طريق التجارب الروحية .

أصل كل معصية

الحكمة الخامسة والثلاثون :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

أصل كل معصية.. وغفلة.. وشهوة : الرضـا عـن النفس، وأصل كل طاعة .. ويقظة .. وعفة : عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضي عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالما يرضي عن نفسه، فأي علم لعالم يرضي عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضي عن نفسه .

قال ابن عباد :

الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضـا عنـها أصـل جميـع الـصفات المحمـودة . وقد اتفق علي هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومـساويها، ويصير متجها حسنا، قال الشاعر عين الرضا عن كل عيب كليلة .

وعدم الرضا عن النفس علي عكس هذا، لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويبحث عن عيوبها، ولا يغتر بما تظهـــره من طاعة وانقياد، كما قال الشاعر في الشطر الأخير كما أن عين السخط تبدي المساويا .

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وسكن إليهـــا، ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها اســـتولت عليـــه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن نقد خواطره وتتبعهـــا، وتثور دواعي الشهوة علي العبد، وليس عنده من المراقبـــة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها، فتكون الشهوة غالبة لـــه بسبب ذلك .

ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه .

أما من لم يرض عن نفسه فهو لا يستحسن حالها ولا يسكن إليها، وقد ورد عن الكبار والأئمة من الكلمـــات المتضمنة لعيوب نفوسهم وعدم رضاهم عنها .

نقد الذات

يتهم الصوفية بنقد الذات علي الدوام، وعدم الرضا عن النفس، إلي الحد الذي يقول فيه أبو حفص : من لم يتـــهم نفسه علي دوام الأوقات، و لم يخالفها في جميع الأحـــوال، و لم يجرها إلي مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا .

ومن نظر إليها فاستحسن شيئا منها فقد أهلكها .

يقول أبو حفص أيضا منذ أربعين سنة : اعتقـــادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط وأعمالي تـــدل علـــي ذلك .

يقول الجنيد رضي الله تعالي عنه لا تسكن إلي نفـــسك وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك .

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالي عنـــه : مـــا رضيت عن نفسي طرفة عين، ويحكي عن سري السقطي أنه قال إني لأنظر إلي وجهي في اليوم أكثر من مرة مخافـــة أن يكون قد اسود من العقوبة علي الذنوب .

وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي جزءاً صغير الحجم عظيم الفائدة في عيوب النفس وكيفية مداواها فلينظر فيه المريد .. ومن قبل ألف الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي كتابا سماه النصائح، جمع فيه من معايب النفس وخدعها وغرورها وشرورها جملة شافية، وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي قدس الله روحه منه فصلا في كتابه، واعتمد فيه ذكره بلفظه ونص خطابه، بعد أن أثني علي مؤلفه بما هو أهله .

قال في حقه : والمحاسبي رحمه الله تعالي حبر الأمة في علم المعاملة وله السبق علي جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال وإغرار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكي علي وجهه، ثم ذكر ما قاله .

قال ابن عطاء الله السكندرى: لأن تصحب جاهلا لا يرضي عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضي عن نفسه، فأي علم لعالم يرضي عن نفسه ؟.. وأي جهل لجاهل لا يرضي عن نفسه ؟..

غالب على أمره

الحكمة التاسعة والثلاثون :

قال ابن عطاء الله :

لا ترفعن إلي غيره حاجة هو موردها عليك، فكيـــف يرفع غيره ما كان هو له واضعا ؟.. من لا يـــستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عـــن غيره رافعا ..

قال ابن عباد :

إذا أورد الله تعالي عليك حاجة، أو أنزل بك نازلـــة، فاعلم أنه لا رافع لها سواه، إذ يستحيل أن يرفع غيره مـــا كان هو له واضعا، لثبوت توحيده في أن لا فاعل ســـواه، فهو غالب علي أمره، ويستحيل أيضا أن يرفعه عنه من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به، لثبوت عجـــزه وضعفه .

ومن المحال تعلقك في حاجتك بمن هو محتاج مثلك .

يقول الصوفية : استعانة المخلوق بالمخلوق، كاستعانة المسجون بالمسجون .

وقال بعضهم من اعتمد علي غير الله فقد اعتمد علـــي ما لا يدوم .. والله كريم يحب أن يسأل .

قال عطاء الخراساني رضي الله عنه، لقيت وهب بـــن منبه في الطريق فقلت :

حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي وأوجز .

قال : أوحي الله تعالي إلي داود عليه السلام قال : يـــا داود وعزتي وجلالي لا يستنصرن بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته فتكيده السماوات السبع ومـــن فيهن، والأراضين السبع ومن فيهن إلا جعلت له منـــهن فرجا ومخرجا، أما وعزتي وجلالي لا يستعصم عبـــد مـــن عبادي بمخلوق دوني أعلم ذلك منه إلا قطعت أســـباب السماوات السبع من دونه، وخسفت الأرض من تحته، ولا أبالي في أي واد هلك .

حسن الظن

الحكمة الأربعون :

يقول ابن عطاء الله :

إن لم تحسن ظنك به، لأجل حسن وصــفه، فحـــسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسنا، وهل أسدي إليك إلا مننا .

وقال ابن عباد :

حسن الظن بالله تعالي أحد مقامات اليقين، والناس فيه علي قسمين : خاصة وعامة، أما الخاصة فقد أحسنوا الظن بالله لما هو عليه من النعوت الــسنية والــصفات العليــة والأسماء الحسني .

أما العامة فقد حسنوا الظن به لما هم فيه مــن نعــم سابغة، وفضل شامل، وكرم عميم .

والتفاوت بين المقامين ظاهر .

إن أرباب المقام الأول (الخاصة) عرفوا الله فاطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم، و لم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظن .

أما أرباب المقام الثاني (العامة) فهم يحسنون الظن بالله بسبب إحسانه ونعمه ، فإذا ابتلاهم الله بشيء وضيّق عليهم رزقهم لأي سبب من الأسباب، هنالك لا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله.. ويستقر الهلع والجزع في نفس الإنسان، وهذا مرض دواءه أن يشاهد العبد معني قوله عز وجل :

وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

ورد في الخبر لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالي .

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :

حسن الظن من حسن العبادة، وقال الله تبارك وتعالي

فيما يروي عنه سبحانه :

أنا عند ظن عبدي بي.. فليظن بي ما يشاء .

والأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن بالله تعـــالي كثيرة، هناك كتاب الرجاء من قوت القلوب لأبي طالـــب المكي، وكتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .

حمار الرحى

الحكمة الثانية والأربعون :

قال ابن عطاء الله السكندرى :

لا ترحل من كون إلي كون، فتكون كحمار الرحـــي يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلي المكون (وأن إلي ربك المنتـــهي)، وانظر إلي قوله صلي الله عليه وسلم : فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله، فهجرته إلي الله ورسوله، ومـــن كانـــت هجرته إلي دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلي مـــا هاجر إليه، فافهم إن كنت ذا فهم .

قال ابن عباد :

العمل علي طلب الجزاء والدرجات، أو نيـــل الرتـــب العلية والمقامات الرفيعة، نقصان في الحال، وظلال علـــي الأعمال .

باختصار هي نقص في مقام الصوفي .. لماذا ؟

إن الرحيل من كون إلي كون هو رحيل بين الأغيار ..

والأكوان غير الله تعالي .

والأكوان كلها متساوية في كونها أغيارا، والأغيار عند الصوفية شيء، والله ليس كمثله شيء .. وانشغال القلب بالأغيار والرحيل من كون إلي كون وراءهـا، وإهمـال القرب من الله تعالي أمر لا يجدر بالصوفية أن يفعلوه، ولا يليق بهم أن يقعوا فيه .

قال رجل لأبي يزيد : أوصني .. قال له : إن أعطـاك من العرش إلي الفرش فقل له لا.. بل أنت أريد .

وقال أبو سليمان الداراني: لو خُيرت بـين ركعـتين ودخول الفردوس لاخترت الركعتين، لأني في الفـردوس بحظي وفي الركعتين بربي .. وقال الشبلي لأحد مريديه : احذر مكره ولو في قوله وكلوا واشربوا يريد لا تـستغرق في الحظ، ولتكن في كل شيء به (سبحانه) لا بنفسك .

عظمة الذنب

الحكمة التاسعة والأربعون :

قال ابن عطاء الله :

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظـــن بالله تعالي، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه

يقول ابن عباد :

عظمة الذنب عند مرتكبه علي وجهين :

الوجه الأول يعظم عنده عظمة تحمله علي التوبة منه، والإقلاع عنه، وصدق العزم علي ألا يعود إلي مثله ..

وهذه عظمة محمودة وهي من علامات إيمان العبد .

قال عبد الله ابن مسعود : إن المؤمن يري ذنوبه كأنهـــا جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يري ذنوبه كـــذباب وقع علي أنفه فحرك يده وأطاره .

يقول الصوفية إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله

تعالي، وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالي،
الوجه الثاني أن يعظم الذنب عند العبد عظمة توقعـــه في
اليأس والقنوط، وتؤدي به إلي سوء الظن بالله تعالي، وهذه
عظمة مذمومة فادحة في الإيمان، وهي شر عليه من ذنوبه.
وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الكريم الغفار قال
رسول الله صلي الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لـــولا
أنكم تذنبون لذهب الله بكـــم ولجـــاء بقـــوم يـــذنبون
فيـــــستغفرون الله تعـــــالي فيغفـــــر لهـــــم
يقول الله تبارك وتعالي :﴿إن الله لا يغفر أن يشرك بـــه،
ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ..

يقول الشاعر ذنوبي :

إن فكرت فيها كثيرة
ورحمة ربي من ذنوبي اوسع

هو الله مولاي الذي هو خالقي
وأني له عبد أذل وأخضع

وما طمعي في صالح قد عملته
ولكنني في رحمة الله أطمع .

عدله وفضله

الحكمة الخمسون :

قال ابن عطاء الله السكندرى لا صـــغيرة إذا قابلـــك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله ..

قال ابن عباد :

إذا ظهرت الصفات العلية، بطلت أعمـــال العـــاملين فإذا ظهرت صفة العدل علي من أبغضه الله ومقته، بطلت حسنته وعادت صغائره كبائر ..

وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه الله اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر ..

قال يحيي بن معاذ رضي الله عنه إذا وضع الله علـــيهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله لم تبق لهم ســـيئة ومن دعائه قوله إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي، وإن مقتني لم تقبل حسناتي ..

وما أحسن قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضـــي الله تعالي عنه في دعائه ومناجاته.. كان يقول :

واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإســـاءة لا تـــضر مـــع الحـــب منـــك . وسيأتي في مناجاة المؤلف (يقصد بن عطاء الله) رحمـــه الله في مثل هذا المعني قوله إلهي كم من طاعة بنيتـــها وحالـــة شيدتها، هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك نخلص من هذا بالقول التالي إذا قابلك الحق سبحانه وتعالي بعدله لم تبق لك صغيرة وعادت صـــغائرك كبـــائر وإذا واجهك بفضله نجوت ..

قال تعالي : ﴿نبئ عبادي إني أنا الغفور الـــرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم وقال سبحانه وإن ربـــك لـــذو مغفرة للناس علي ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ ..

الطاعة والفرح

الحكمة الثامنة والخمسون :

قال ابن عطاء الله : لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ .

قال ابن عباد : الفرح بالطاعة علي وجهين، فرح بها من حيث شهودها من الله تعالي نعمة منه وفضلا .

وهذا هو الفرح المحمود، وهو الذي طلب من العبد، وهذا هو مقتضي شكرها .

وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وإرادته، وحوله وقوته، وهذا - عند الصوفية - فرح مذموم، منهي عنه، وهو يكاد يصل إلي حد كفران النعمة .. وهو من العجب المحيط للعمل، فالفرح بها علي هذا الوجه فرح بلا شيء .

تعقيب ..

لا يكون فرحك بالطاعة من حيث صدورها عنــك، باختيارك وحولك وقوتك، فهذا هو الفرح المذموم المنهي عنه، وإنما ليكن فرحك بالطاعة إن الله تفضل بها عليــك، وهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد، وهو المقتضي شكر النعمة لقوله تعالي : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾

فإذا ظهرت منك- أيها المريد- طاعة فلا تفــرح بهــا حيث أنها برزت منك، فإن الله غني عنك وعن طاعتــك وقال تعالي : ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾

وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم فيما يرويه عــن ربه سبحانه يا عبادي لو أن أولكم وآخــركم وانــسكم وجنكم كانوا علي أتقي قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئا إنما تفرح بالتقوي والطاعة بوصفها هدية مــن الله تعالي إليك، وجزءا من فــضله عليــك، وهــذا مــا يستوجب الفرح قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحــوا هو خير مما يجمعون .

آفة الطمع

قال ابن عطاء الله السكندرى :

ما بسقت أغصان ذل إلا علي بذر طمع ..

قال ابن عباد :

البسوق هو الطول، يُقال بسقت النخلـــة بـــسوقا إذا طالت، قال تعالي والنخل باسقات، والأغصان جمع غصن وهو ما خرج من سوق الشجر .. وهذه كلها استعارات مليحة ..

أما القضية التي تناقشها هذه الحكمة فهي قضية الطمع.

أبذر بذور الطمع تحصد ثمار الذل ..

والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحـــة في عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات، لأنه محـــض تعلـــق بالناس، والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهـــم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، والطمع مـــضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة .

كيف تكون العزة التي يتصف بها المؤمنون ؟..

تكون برفع هممهم إلي مولاهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، وثقتهم به دون من سواه .

هذه هي العزة التي منحها الله لعباده المؤمنين . قال تعالي : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾

وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك المذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين ... قال تعالي :

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾

قال أبو بكر الوراق الحكيم رضي الله تعالي عنه : لو قيل للطمع من أبوك ؟.. قال الشك في المقدور .. ولو قيل له ما حرفتك ؟.. قال: اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك قال : الحرمان .

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري : من طمع في شئ ذل، وربما أسلمه الذل إلي الهلاك .

الطمع والورع

قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنـــه إلي البـــصرة ، فدخل جامعها فوجد القصاص يقصون فمنعهم حتي جاء إلي الحسن البصري رضي الله عنه فقال :

يا فتي إني سائلك عن أمر فإن أجبتني عنه أبقيتك، وإلا منعتك كما منعت أصحابك، وكان قد رأي عليه وقـــارا وهديا

قال الحسن سل عما شئت ..

قال : ما ملاك الدين ؟..

قال : الورع ..

قال : فما فساد الدين ؟..

قال : الطمع ..

قال علي بن ابي طالب :

اجلس فمثلك من يتكلم علي الناس .

قال ابن عباد سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول كنت في ابتداء أمري بثغر الإسكندرية، جئت إلي بعـــض مـــن

يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهـــم، ثم قلـــت في نفسي لعله لا يأخذه مني، فهتف بي هاتف إن السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين، قال.. صاحب الطمع لا يشبع أبدا، ألا تري أن حروفه كلها مجوفة الطـــاء والمـــيم والعين .

ثم قال بعد هذا عليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تـــذل لهـــم فقـــد ســـبق رزقـــك وجـــودك . وقد ذكرنا الطمع ما هو، وإنما يقابله ورع الخاصة، وهـــو عندهم صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمم عليه، وطمانينة القلب بـــه، ولا يكون له ركون إلي غيره، ولا الانتساب إلي خلق ولا كون.

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه الورع على وجهـــين، ورع فى الظاهر ألا يتحرك إلا لله، وورع فى الباطن، وهو ألا يدخل في قلبك إلا الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..



الفهرس

رقم الإيداع ١٥٩٨ / ٢٠٠٥